

# الفصل الثاني

## عصور تونس التاريخية

تونس قبل الفتح العربي :

كان يسكن تونس في القديم المنصر البربري الذي لا يعرف عنه التاريخ إلا القليل ، ويحدثنا المؤرخون أنه كان للبربر نصيب من الحضارة لاتصالهم بمصر الفرعونية وبلاد اليونان .

وفي القرن الثاني عشر و . م . ابتدأت تنتشر على سواحل تونس مراكز تجارية قام بتأسيسها الفنيقيون الذين قدموا إليها من الشام ، وهم الذين أنشأوا مدينة قرطاجنة في القرن التاسع ق . م . التي ما لبثت أن أصبحت تسيطر على بقية المدن والمراكز التجارية الجديدة على طول سواحل بلاد المغرب ، وتكونت في قرطاجنة في ذلك العصر أعظم دولة بحرية امتد نفوذها من برقة إلى المغرب الأقصى ، وزاحت الدولة اليونانية في السيادة على البحر الأبيض المتوسط .

وبعد أن سيطرت قرطاجنة على السواحل بسطت سلطانها على المناطق الداخلية واستمرت وأجبرت البربر على دفع الضرائب والانخراط في الجيش . وقد انبثت من مدينة قرطاجنة حضارة شرقية زاهرة ، وأخذ البربر بأسباب هذه الحضارة ، ونقلوا عن الفنيقيين أصول التجارة والصناعة والفلاحة ، واعتنقوا عقائدهم الدينية وعاداتهم الاجتماعية .

وفي منتصف القرن الثالث ق . م . اشتد التنافس بين رومة وقرطاجنة في السيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط وأدى ذلك إلى نشوب « الحروب الفنيقية الثلاثة » بين الفريقين ، وقد دامت أكثر من قرن وانتهت بتدمير قرطاجنة الفنيقية سنة ١٤٣ ق . م . وإقامة قرطاجنة الرومانية على أنقاضها .

وقد تركت الحضارة الفينيقية التي دامت أكثر من عشرة قرون آثاراً عميقة في البلاد .

وبعد العصر الفينيقي دخلت تونس تحت سيطرة روما من سنة ١٤٦ ق . م . إلى سنة ٤٣٠ . ولم يمض الرومان بادي الأمر باستعمار البلاد إذ كانوا منهكين في الحروب الداخلية . وقد بسطوا نفوذهم المباشر على « أفريقيا » ( أفريقية ) التي كانت تشمل مناطق المملكة التونسية الحالية ، بينما وكلوا أمر « نوميديا » ( وهي منطقة قسنطينة الحالية التابعة للجزائر ) إلى أمير من أمراء البربر وضموه تحت حمايتهم .

وشرعت الدولة الرومانية في تنظيم استعمارها وتوطيد أقدامها في البلاد ، بعد أن استقر الحكم للقيصرية سنة ٣١ ق . م . فأقطعت الأراضي الشاسعة إلى قدماء الهاربين والأغنياء من الرومان وخطت الطرقات في طول البلاد وعرضها . فانتشرت المزارع والبساتين وعم العمران وتمددت المدن الزاهرة حتى أصبحت تونس من أخصب ممتلكات الامبراطورية الرومانية وأكثرها عمراناً . وقد جعل الرومان من مناطق البلاد الفاحلة مناطق خصبة بما أحدثوه من نظام محكم للري وما حفروه من آبار .

وكانت سيطرة الرومان على البلاد عسكرية واقتصادية ، ومع ذلك فقد ازدهرت حضارتهم في البلاد وبلغت أوجها بين بقية ممتلكاتهم ، وأخذ البربر بأسباب هذه الحضارة وسامحوا في ازدهارها ، ووصل بعضهم إلى أعلى الرتب والوظائف في الدولة الرومانية . إلا أن بعض القبائل البربرية لم تقبل على هذه الحضارة وبقيت محافظة على شعائرها ولقنها ، وتحصنت في الجبال وصارت تترصد الفرص للانتقاص على السلطة الرومانية .

ولما ظهرت الخلافات الدينية بين المسيحيين ساعد البربر على انتشارها في إفريقية ، وكانت نتيجة ذلك أن اختلت الأحوال في إفريقية وسادت البلاد الفوضى وضمف نفوذ الحكام وتكررت ثورات البربر ، وانتهى هذا العصر الذي دام ستة قرون باحتلال الوندال للبلاد في القرن الخامس الميلادي .

وأسس الوندال بأفريقية مملكة مستقلة دامت نحو المائة سنة ، وكان احتلالهم

لبلاد احتلالاً عسكرياً ، وقد احتفظوا بنظام الإدارة الرومانية ، وقضوا على  
الاستعمار الروماني للأراضي ، فاستمالوا بذلك البربر وتماونوا معهم وأشركوهم في  
الغزوات التي شنوها على سواحل البحر الأبيض المتوسط .

ولما ضعف سلطان الوندال خرج جزء كبير من بلاد البربر عن طاعتهم ،  
ولم يبق بأيديهم سوى شمال بلاد إفريقية ( تونس ) ، وانتهى بهم الأمر إلى أن  
طردهم روم بزنطة سنة ٥٣٤ م . الذين ألحقوا إفريقية بإمبراطوريتهم بعد أن  
كسروا شوكة البربر . ثم شرعوا في تنظيم البلاد وإقامة الحصون بها لرد غارات  
القبائل البربرية .

وبعد أن عاد الأمن للبلاد وتمتت بحياة الرخاء مدة قرنين متوالين اضطربت  
الأحوال بسبب ضعف سلطان الروم واستفحال النزعات الدينية ، وأفضى ذلك بولادة  
الروم إلى الاستقلال بالحكم في المناطق الإفريقية التي كانوا يديرون شؤونها ،  
وقويت شوكة رؤساء قبائل البربر فخرجوا عن طاعة الدولة وصاروا يناهضونها في  
كل المناسبات .

### الفتح العربي :

بعد أن استولى العرب على مصر سنة ١٧ هـ في عهد الخليفة عمر بن الخطاب  
انجهوا بفتوحاتهم نحو الشمال ، فانزعموا برقة وطرابلس من يد الروم ، ثم حولوا  
أنظارهم إلى بلاد المغرب ، وغزوا إفريقية لأول مرة سنة ٢٧ هـ ، ثم رجعوا إليها  
سنة ٤٥ هـ ، ولكنهم لم يستقروا بها ولم يتركوا وراءهم أثراً يذكر .

فكانت هاتان الحملتان تمهيداً للفتح النهائي الذي تم على يد عقبة بن نافع  
سنة ٥٠ هـ . وقد رأى عقبة أن أحوال إفريقية لا يمكن أن تستقر للعرب إلا إذا  
أنشأوا لهم مركزاً قاراً بها وممسكراً يخرجون منه لفتح بقية المغرب ، فصرف  
عنايته لبناء مدينة القيروان . ومنذ اليوم الذي أصبح فيه للعرب عاصمة في إفريقية  
اهتموا بفتح بلاد المغرب فتحاً نهائياً ، وصاروا يمتدرون إفريقية ولاية مستقلة  
الشخصية بعد أن كانت تابعة لمصر .

وقد وقف كل من الروم والبربر في وجه استيلاء العرب على أفريقية وبقية المغرب وتحالفوا لمقاومة العرب . ولكن عقبة عرفت كيف يقضى على هذه المقاومة في بادئ الأمر ، واستطاعت جيوشه أن تستولى على البلاد إلى أن وصلت حتى المحيط الأطلسي . غير أن جيوشه انهزمت في طريق رجوعها من المغرب الأقصى أمام جيوش البربر التي كان يقودها « كسيلة » . فخرجت أفريقية من يد العرب للمرة الأولى بعد أن احتل البربر القيروان . وأقاموا دولة بربرية في جنوب أفريقية ، بينما كان الروم محتفظين بشمالها ، ومتحصنين في قرطاجنة وبقية المراكز المحصنة . غير أن انهزام الجيوش العربية لم يمنع أثر العرب في أفريقية إذ بقي الكثير منهم مقيما بالقيروان تحت حكم كسيلة ، وكانت تناصرهم قبائل بربر الجنوب الذين دخلوا الإسلام منذ الغزوة الأولى .

وفي عهد عبد الملك بن مروان توجه العرب إلى القضاء على دولة الروم ودولة البربر ، وكسر شوكة قبائل بربر الشمال المتصممين في الجبال . فاستطاع زهير بن قيس البلوي القضاء على المقاومة البربرية سنة ٦٤ هـ . وجاء بعده حسان بن النعمان إلى أفريقية سنة ٧٦ هـ ، وكانت مهمته القضاء على مقاومة الروم ، فتمكن من الاستيلاء على حصونهم وطردهم من عاصمتهم قرطاجنة .

ولكن أفريقية خرجت من يد العرب مرة ثانية ، إذ انتظمت مقاومة البربر بزعامة امرأة منهم تلقب « بالكاهنة » ، بينما جاءت النجدات إلى الروم من بيزنطة نفسها .

وعاد حسان إلى أفريقية سنة ٨١ هـ ، وبقضائه على جيوش الكاهنة قضى على آخر مقاومة قام بها أهل البلاد ، ثم اتجهت عنايته إلى الروم فاستولى على قرطاجنة بعد أن حاصرها برا وبحرا .

وهكذا تم الفتح العربي في أفريقية ، وبقي على العرب أن ينظمو شؤون ولايتهم الجديدة وأن يستقروا فيها ، وأن يفتحوا بقية المغرب حتى يتم لهم أسرار البلاد كلها .

وكانت إدارة البلاد موكلة إلى الوالي الذي يعين من قبل الخليفة . واتخذ العرب مدينة القيروان مركزاً إدارياً ، وأنشأوا بها الدواوين المختلفة ، وعينوا العمال

للاشراف على شؤون الولاية .

وبادر حسان بإنشاء ميناء جديد يحمل محل قرطاجنة ، فبنى مدينة تونس التي ما لبثت أن أصبحت المنفذ الذي خرج منه العرب لفتح صقلية وإيطاليا .

ويرجع استغراق الفتح العربي لبلاد أفريقية طول هذه المدة لأسباب : منها بحد البلاد عن مركز الخلافة ، ووعورة الأراضي ، واتساع مناطقها . ثم إن ظروف العرب في ذلك الحين وما نزل بهم من أحداث وفتن كان من شأنها أن تقلل من الجهود التي كان على العرب أن يبذلوها لفتح المغرب .

وكانت المعاملة الحسنة التي كان العرب يمارسون بها البربر مما ساعد على فتح أجزاء المغرب الأخرى ، إذ بمجرد ما دخل البربر في الإسلام اعتبروا متساوين في الحقوق والواجبات مع الغزاة العرب ، وأصبحوا يشاركونهم في الفتوحات ومناصب الإدارة وغيرها .

وقد أدت هذه السياسة في بلاد أفريقية إلى نهوض البربر وأخذهم بأسباب الحضارة العربية وتلقاهم بلغة العرب ودينهم ، واندماجهم شيئاً فشيئاً في المنصر العربي ، فأنشأوا عدة دول وأقاموا حضارة زاهرة متميزة في تاريخ الحضارة الإسلامية .

### تونس في القرن الثاني الهجري :

كان للخلافات السياسية التي حدثت في المشرق أواخر القرن الأول الهجري والتي أدت إلى ظهور « الخوارج » صدها في بلاد المغرب . فانتشرت حركة الخوارج بسرعة بين قبائل البربر وحتى في بلاد الأندلس التي كانت في ذلك الحين تابعة لإمارة القيروان . وصارت إفريقية بدورها ميداناً للفتن الداخلية . فلم تستقر فيها دولة قوية إذا استثنينا دولة بني المهلب ، إلى أن ظهرت الدولة الأغلبية في أواخر القرن الثاني هـ .

وكان لدعاية الخوارج أثر عظيم في انتشار الإسلام واللغة العربية بين القبائل البربرية . وفي هذا المهد أيضاً وجه الخليفة عمر بن عبد العزيز عنايته إلى نشر الإسلام في المغرب . فأرسل جماعة من مشاهير التابعين لتنظيم هذه المهمة ، وبناء صرح المغرب الإسلامي ، فأسسوا المساجد في سائر أنحاء البلاد لنشر مبادئ الدين

الإسلامي ، وأنشأوا الكتاتيب لتعليم اللغة العربية (١) . ويرجع تاريخ بناء جامع الزيتونة إلى هذا العهد ( سنة ١١٤ هـ ) .

وبالرغم من الفتن والاضطرابات فقد بدأت تظهر في إفريقية بوادر ازدهار الحضارة العربية ، وشرعت إفريقية في ظل الإسلام تأخذ طريقها إلى الحياة السياسية والعلمية الخاصة بها ، إلى أن تكونت فيها دول قوية لها شخصيتها وحضارتها . وأولى هذه الدول هي الدولة الأغلبية .

### دولة الأغلبية :

لم تستقر الأحوال في إفريقية إلا في عهد الخلافة العباسية عند ما عين هارون الرشيد سنة ١٨٤ هـ إبراهيم بن الأغلب والياً عليها ، جاعلاً الإمارة وراثية في بيته . وهكذا نشأت في تونس أول دولة عربية قوية مستقلة داخلياً عن الخلافة ، وتماقب أمراؤها على الحكم أكثر من قرن بلا انقطاع .

وقد اتخذ الأغلبية القيروان عاصمة لمملكتهم التي كانت تشمل المملكة التونسية الحالية ، كما تشمل مقاطعة قسنطينة ( بالجزائر ) وطرابلس الغرب .

وفي ظل الأمن الذي استطاعت الدولة تحقيقه ساد البلاد الرخاء ونمت ثروتها الطبيعية ، فانتشرت الزراعة كما كانت في عهد الرومان ، وانتظمت وسائل الري في البوادي ، وأنشئت المدن ، وظهرت فيها الصناعات ، وبخاصة صناعة نسج الصوف والحريز . وعينت الدولة بالمناجم فاستخرجت منها المعادن ، وقويت الحركة التجارية في الموانئ مع العواصم الأروبية .

وانصرفت الدولة إلى الأعمال العمرانية فجددت مسجد القيروان وأنشأت المساجد في سوسة وصفاقس ، وأقامت الأسوار حول المدن والحصون على السواحل ، وبنيت السدود والأحواض في أنحاء البلاد لجمع مياه الأنهر والأمطار ، وأشهر هذه الأحواض « صهريج الأغلبية » في القيروان الذي ما يزال موجوداً حتى الآن .

وكانت مدينة القيروان في هذا العصر معقلاً من معاقل الحضارة الإسلامية ومنبعاً من منابع إنتاج الفكر العربي ، فانتظم التعليم في الكتاتيب والمساجد والجموامع ، وتكونت المكاتب العامة لجمع الكتب الأدبية والعلمية ، وأنشئ

(١) ابتداء تأسيس الكتاتيب منذ أنشئت مدينة القيروان

بالتقديرون ممدد لدراسة الرياضيات والطب والصيدلة وترجمة الكتب اللاتينية ،  
وسمى هذا المهد « بيت الحكمة » . وقد ظهر في ذلك العصر من مشاهير الرجال  
القاضي أسد بن الفرات (المتوفى سنة ٢١٣هـ) والقاضي سحنون التوفى (سنة ٢٤٤هـ)  
من أئمة المذهب المالكي ، ومن الأطباء أحمد بن الجزار .

واعتنى الأغالبة بالفن المهارى الذى امتاز فى عهدهم بطابع خاص . واشتهر  
بلاط الأغالبة فى القيروان بمظلمته وأهنته وكانت لهذه الدولة صلات ودية  
بالامبراطور شرلمان . واعتنى الملوك الأغالبة إلى جانب هذا بالفتح فبسطوا نفوذهم  
على البحر الأبيض المتوسط وكانوا ورثة قرطاجنة وروما . وقد احتلوا جزيرة  
صقلية سنة ٢١٢هـ واستولوا على جنوب إيطاليا سنة ٢٨٩هـ ، وهكذا أوصلا  
الثقافة العربية إلى أوروبا وصار الأساتذة العرب فى صقلية ينشرون العلوم ممددين  
السبيل للنهضة الأوروبية التى ظهرت فيما بعد فى إيطاليا .

وبالجملة فإن عصر الأغالبة كان عصر نهضة اقتصادية وعمرانية وفكرية تركت  
أثراً عميقاً فى بلاد أفريقية .

### النهضة الفاطمية :

كان للمذاهب المختلفة الناشئة عن الخلافات الدينية والسياسية القائمة فى الشرق  
العربى أثرها فى الدولة التى نشأت فى المغرب . وقد كانت هذه البلاد حتى أواسط  
القرن الثالث الهجرى يسودها المذهب المالكي الذى وطد أركانه بها كل من  
الفتيحين المالكيين أسد بن الفرات وسحنون .

ولكن شيئاً فشيئاً بدأ البربر يتصلون برجال المذاهب الأخرى ، ووجدوا  
فى فرقة الخوارج وصلابتها فى الدين تلاءماً مع طبيعتهم ، وسرطان ما أقبلوا على  
اعتناق مذهبها ، وما كاد القرن الثالث يوفى على نهايته حتى كان مذهب الأباضية  
— وهى فرقة من فرق الخوارج — قد انتشر انتشاراً كبيراً فى القبائل التى تسكن  
جنوب المغرب .

أما قبائل الشمال كتامة وصنهاجة وما يقبهما فقد اعتنقت المذهب الشيعى الذى

قام بالدعوة إليه في المشرق عبيد الله المهدي ، وأوفد في ذلك الحين الداعي أباعبد الله ليقول نشر مذهبه ببلاد المغرب .

وكانت دولة الأغالبة قد أشرفت على نهايتها . فنظم أبو عبد الله الدعوة ضدها ، كون الجماعات لنشر المذهب الشيعي وخلع طاعة الأغالبة ، والعمل على تكوين خلافة شيعية بالمغرب .

وعندما رأى عبيد الله المهدي أن الدعوة قد انتشرت بالمغرب ، وأن جيوش داعيته قد أصبحت قاب قوسين من النصر ، انتقل من دمشق إلى سجلماسة وظل محتفيا بها إلى أن انتهى الأمر بانهزام جيوش الأغالبة ، وفر آخر أمير منهم وهو زيادة الله الأغلابي بمدن أن يئس من وصول نجدة العباسيين إليه . فدخل عبيد الله إلى القيروان حيث يبيع بها سنة ٢٩٧ ولقب بأمر المؤمنين .

وهكذا تكونت بافريقية خلافة الفاطميين ، بينما كانت الخلافة العباسية ما تزال قائمة ببغداد ، والخلافة الأموية بالأندلس . وبعد ذلك أخذ الفاطميون يوطدون أركان دولتهم ببلاد المغرب ، فأسسوا عاصمتهم الجديدة سنة ٣٠٨ وأسماها المهديّة ، واستطاعوا أن يخضعوا سلطانهم كافة بلاد المغرب ، بمدن أن قضوا على الدولة الأباضية في تيهرت ( الجزائر ) والصفيرية في سجلماسة ( المغرب الأقصى ) والأدرسية في فاس .

وبعد ذلك أتجه الفاطميون بدعوتهم إلى منبعا الأول في المشرق العربي ، وأرادوا أن يسيطروا سلطانهم عليه ، فوجهوا جيوشهم بقيادة مولايم جوهر الصقلي الذي ما لبث أن استولى على مصر ودخل عاصمتها الفسطاط ، وأسس بجوارها مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ التي أصبحت منذ ذلك الحين حاضرة الخلافة الفاطمية التي امتد نفوذها من الشام إلى أقصى المغرب .

وبالرغم من الثورات التي انتابت تونس في هذا العهد فان الحضارة العربية قد ازدهرت بها من جديد ، ونشطت النهضة العلمية وانتشرت المعاهد الثقافية ليس في تونس فقط بل حتى في مدن صقلية التي كانت خاضعة لسلطانهم . وإلى جانب هذا احتفظ الفاطميون بالسيادة العربية على البحر الأبيض المتوسط ، فكان أسطولهم يجوب البحار ويغن الغارات على المدن الأفرنجية وعلى جزر اليونان ،

واستطاعوا أن يضموا إلى خلافتهم كلا من جزيرتي أقریطس ( كريت ) وسردينيا وقسما من جزيرة كورسيكا .

### الدولة الصنهاجية :

لما انتقلت عاصمة الخلافة إلى القاهرة أصبح المغرب ولاية تابعة لمصر يدبر شؤونها أمير من أصل بربري اسمه بلسكين بن زيري بن مناذ الصنهاجي . وهكذا تأسست الدولة الصنهاجية ، وكانت مرتبطة بالخلافة ارتباطاً صورياً لحسب . واستطاع ملوكها الاحتفاظ بمملكتهم الواسعة التي ورثوها عن الفاطميين . ثم خرج عن طاعتهم المغرب الأوسط حيث تكونت به دولة بني حماد في فجر القرن الخامس هـ . ، وبقيت مملكة بني زيري محصورة في إفريقية وعاصمتها القيروان .

وتعتبر الدولة الصنهاجية أول دولة بربرية في إفريقية بعد الفتح الإسلامي ، ويمد عصرها من أزهى عصور الحضارة التونسية . وقد مهد لهم السبيل الأفريقية والفاطميون في نهضتهم بالبلاد من الوجهة الاقتصادية والعمرائية والثقافية . فشارك الصنهاجيون بأوفر قسط في بناء صرح الحضارة البربرية ، وبلغت تونس في عهدهم الذروة العليا في الرقي والتقدم . فانتشرت الزراعة في أنحاء البلاد بفضل انتشار وسائل الري ، وارتفع مستوى الصناعة الوطنية ونشطت التجارة مع الخارج .

أما النهضة الأدبية والفكرية فإنها وصلت إلى درجة لم تبلغها تونس من قبل . فامتلاً بلاط ملوكها برجال العلم والأدب ، وعنى أغلبهم بالفن المماري فأنشأوا القصور الفخمة والنازه الجميلة وتنافسوا في تشييد المعالم كالجسور والطرقات وصهاريج المياه والحصون والأسوار .

### غزوة بني هلال :

وحوالي سنة ٥٤٣٥ هـ . أظهر الملك العزيز باديس الصنهاجي أنحيازه إلى أهل السنة في القيروان ، وأصبح يناصر الخلافة المباسمية في بغداد معلناً خروجه عن طاعة

الخليفة الفاطمي المستنصر سنة ٤٣٩ هـ .

فرأى المستنصر أن ينتقم من المرز ، وأرسل إلى إفريقية قبائل بني هلال  
وبني سليم ورياح التي كانت تقيم في الصعيد المصري ، فوصلوا إفريقية سنة ٤٤٠ هـ .  
وقد أحدث هذا الزحف العربي العظيم انقلاباً عميقاً في مختلف نواحي الحياة  
بإفريقية ، إذ تم بفضل استعراب البلاد بصورة نهائية ، إلا أنه كان من نتائجها أن  
عمت البلاد الاضطرابات وتمزقت أوصال الدولة الصنهاجية ، ونشأت دويلات  
صغيرة في أنحاء البلاد كانت أشبه بملوك الطوائف بالأندلس كما وقع في سائر البلاد  
التي كان يحكمها العرب شرقاً وغرباً وقتذاك ، وبقي بنو زيري محتفظين بالمهدية  
والمناطق المجاورة لها .

وفي تلك الفترة انتزع النورمان من العرب جزيرة صقلية بعد أن كانت  
تابعة لتونس مدة تقرب من ثلاثة قرون ، وصاروا يفتنون المهدية بين الحين والآخر  
حتى استولوا عليها سنة ٥٤٣ هـ ، كما استولوا على معظم السواحل التونسية ، بينما  
كانت مدن الداخل تخضع لحكم القبائل العربية . وهكذا انقضت الدولة  
الصنهاجية في تونس .

#### الدولة المرهومية :

استنجد الملك الحسن بن علي الصنهاجي بعبد المؤمن بن علي مؤسس الدولة  
الموحدية في المغرب الأقصى لإنقاذ تونس من أيدى الأفرنج ، وكان عبد المؤمن في  
ذلك الحين قد أخضع لسلطانه المغرب الأقصى كما ضم إلى مملكته بلاد الأندلس ،  
فاستجاب عبد المؤمن لاستنجد الصنهاجيين ، وسار إلى إفريقية محتلاً في طريقه  
المغرب الأوسط ، ثم أخذ يحتل بلاد إفريقية ، وبعد أن استولى على المناطق  
الداخلية سار إلى مدن الساحل وطرد منها النورمان . فتم له أمر البلاد سنة ٥٥٥ هـ  
وهكذا تأسست دولة مترامية الأطراف تضم أقطار المغرب العربي الثلاثة ، ودامت  
أكثر من سبعين سنة استطاع فيها الموحدون أن يجمعوا الثورات المديدة التي  
كانت تقوم ضدهم بين الحين والآخر .

## الدولة الحفصية :

عمل ملوك بني حفص على إصلاح البلاد من جراء العهد المضطرب الذي مر على افريقية ، وساروا على منوال الموحدين في تنظيم دواوين الدولة . واستطاع أبو زكرياء مؤسس الدولة وكذلك المستنصر الذي خلفه توطيد دعائم الأمن في تونس وإخماد نار الفتن بين القبائل والقضاء على الثورات التي نشبت في مختلف أنحاء البلاد . وقد اتسمت المملكة الحفصية حتى شملت طرابلس والجزائر ومراكش التي انضم ملوكها بنو مرين إلى الحفصيين وقدموا لهم فروض الولاء ، كما بايعهم أمير مكة وأهل الحجاز سنة ٦٥٨ هـ .

وفي عهد المستنصر أغار لويس التاسع ملك فرنسا على تونس في الحملة الصليبية الثامنة ، ونزل الطاعون بجيشه فأفنى معظمه ، وابقى الملك لويس نفسه حتفه بتونس سنة ٦٦٩ هـ . ( ١٢٧٠ م ) .

ثم شاهدت الخلافة الحفصية عهداً مضطرباً دام حوالي مائة سنة ، وكان التنافس بين أسراء البيت الحفصي وتطلعتهم إلى الخلافة من جهة ، والخلافات القائمة بين القبائل من جهة أخرى باعثاً لكثير من الفتن التي اضعفت سلطة الخلافة المركزية ، فخرج عن طاعة الخليفة أطراف المملكة ، واستقل بالحكم بنو يملول في توزر ، وبنو خلف في نفطة ، وبنو مكي في قابس ، وبنو ثابت في طرابلس . وقد شجع التدهور الذي لحق الخلافة الحفصية في ذلك العهد ملوك بني مرين في المغرب الأقصى على الاستيلاء على افريقية مرتين دون أن يستقر لهم الحكم بها زمناً طويلاً .

وفي أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجري عادت البلاد إلى وحدتها القديمة ومجدها السالف ، وساد فيها الأمن بفضل أعمال الخليفة أبي المباسم والخليفة أبي فارس ، فتدعمت أركان الدولة من جديد وامتد نفوذ بني حفص إلى المغرب الأوسط بمد أن سقطت تلمسان في أيديهم ، ثم إلى المغرب الأقصى والأندلس . وقد عني كل من هذين الخليفين بإقامة الحصون على السواحل لرد الحملات التي ابتدأ يشنها الصليبيون على تونس ، بيد أن الخلفاء الذين تولوا بمدها

لم يستطيعوا أن يحافظوا على مكانة الدولة ، فساروا بالبلاد إلى الفوضى ، وخرج عن سيادتهم كثير من الأنحاء حتى لم يبق تابعا لهم في أواخر القرن التاسع الهجري غير مدينة تونس وما جاورها من المناطق ، واستقلت مدن السواحل بحكم نفسها ، وأخذت كل واحدة منها تلمب دورا هاماً في البحر الأبيض المتوسط .

وفي عهد الدولة الحفصية رأت البلاد عصوراً زاهرة بالرغم مما انتاب البلاد من اضطرابات وضعف سلطة الخلفاء المركزية ، وقد عقدت الدولة الحفصية عدة معاهدات لتنظيم الملاحة وتمتين الملاقات التجارية والسياسية بينها وبين البلاد الأوروبية كبرشلونة وجنوة وبنزة وصقلية والبندقية ومرسيليا ، واشتهرت بين التجار الأوروبيين أسواق تونس والمهدية وقابس وعنابة وأصبحت قبلة تجار البحر الأبيض المتوسط . وأبنت الحياة الأدبية والعلمية في هذا العصر ، وكان تزوح العرب من الأندلس وصقلية إلى تونس من العوامل التي كان لها أكبر الأثر في انتشار العلوم والفنون ، فظهر أثر الفن الأندلسي فيما أنشئ من المباني كجامع القصاء بماصحة تونس وصومعته المشهورة وأسواق المدينة وأبوابها التي ما تزال موجودة إلى الآن . كما عمل الملوك الحفصيون على تشجيع العلم والأدب في البلاد ، فأسسوا المدارس لسكنى الطلبة ونظموا التعليم بجامع الزيتونة ، ومن مشاهير رجال هذا العصر ابن خلدون وابن عرفة والأطباء من آل الصقلي .

### تونس في القرن العاشر الهجري :

شهد القرن العاشر ذلك النزاع الكبير الذي كان قائماً بين الاسبان والأتراك للتحكم في البحر المتوسط والسيطرة عليه ، وقد ابتدأ نفوذ الاسبان يمتد إلى سواحل المغرب بعد أن طردوا العرب من الأندلس ، بينما ظهر في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط بعض القواد الأتراك مثل بابا عروج وأخيه خير الدين الذين كانوا يعملون باسم السلطان العثماني .

وهكذا أصبح العثمانيون والاسبان يتسابقون للاستيلاء على سواحل تونس بعد أن هجز أمراء بني حفص على رد هجاتهم . واستطاع أمراء الأفرنج احتلال أهم مراكز السواحل التونسية ، وسقطت مدينة تونس سنة ٩٣٥ هـ . في أيدي

الأتراك الذين احتلوها بعد استيلائهم على مدينة الجزائر . ثم انتزعها منهم الأمير الحفصى الحسن وعاد إلى حكمها تحت الحماية الاسبانية سنة ٩٤٢ هـ . وفى النهاية استطاع الأتراك طرد الاسبان من مدن السواحل بفضل الحملات التى شنها عليهم القائد التركى الشهير درغوث بمساعدة القبائل العربية .

وبقيت الحرب بين الاسبان والأتراك قائمة مدة طويلة ، وبعد أن استرجع الأتراك مدينة تونس سنة ٩٧٧ بقيادة على باشا أمير الجزائر عاد إليها الحكم الاسبانى الحفصى سنة ٩٨٠ ، ثم غزاها أسطول تركى جاء من الأستانة بقيادة سنان باشا ، بينما زحفت إليها قوات تركية أخرى من طرابلس والفيروان سنة ٩٨١ هـ .

وهكذا أصبحت تونس ولاية تابعة للسلطنة العثمانية وجزءاً من ممتلكاتها فى شمال افريقية الممتدة من الجزائر إلى القطر المصرى .

### العهد التركى :

عمل سنان باشا قبل مغادرته تونس على تنظيم إدارة شؤون البلاد حسب النظام المعمول به فى سائر البلاد التركية .

فكان يحكم ولاية تونس نيابة عن السلطان العثمانى وال يحمل لقب « الباشا » ويساعده ديوان يتألف من ضباط الجيش ، وكانت قيادة الجيش بيد « آغا » ، وقيادة كل فرقة عسكرية بيد « الداى » ، وعين لجباية المال موظف يسمى « الباي » وقد أخذ نفوذ الديوان يتسع شيئاً فشيئاً إلى أن أدى الأمر بالبلاد إلى قيام ثورة سنة ٩٩٩ هـ ( ١٥٩٤ م ) كانت نتيجتها إعطاء مقاليد الأمور إلى أحد « الدايات » ، ثم أخذ نفوذ الداى يتسع شيئاً فشيئاً ، بينما كان يتضاءل نفوذ « الباشا » الممثل الرسمى للدولة العثمانية فى تونس .

وقد نظمت شؤون هذه الولاية فى عهد عثمان داي الذى عمل على تقوية الجيش وإعطاء قيادته إلى « باى » . وسار على منواله يوسف داي الذى تولى الحكم سنة ١٠١٩ هـ ( ١٦١٠ م ) ، فاستتب الأمن فى عهدهما ونهضت البلاد من جديد ثم سادت الأحوال فى تونس بعد ذلك ، لأن الدايات الذين تعاقبوا على

الحكم من سنة ١٠٤٧هـ (١٦٣٧م) إلى سنة ١١١٧هـ (١٧٠٥م) لم يستطيعوا أن يحتفظوا لأنفسهم بالنفوذ، وقد تضاعفت سلطتهم أمام سلطة «البايات» التي أخذت تتسع يوماً بعد يوم طول القرن الحادى عشر الهجرى .  
ومن العوامل التي قوت نفوذ البايات ما عمد إليه الباب العالي من إعطائهم لقب «باشا» ، وجعل منصب الباي وراثياً .

وقد امتاز الثلث الأخير من القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر بما انتاب البلاد من حروب واضطرابات ناجمة عن التنافس على العرش . فنشبت للفتن الداخلية ، وقامت حروب بين إمارة الجزائر وإمارة تونس ، فعمت بذلك الفوضى ، وتمزقت أوصال الدولة ، وضعفت السلطة المركزية ، مما شجع أساطيل الدول الأوروبية على ضرب سواحل تونس بالمقابل صرات عديدة .

وعلى أثر غزوة قام بها والى الجزائر سادت البلاد اضطرابات شديدة ، وتمكن آغا الجيش حسين بن على من الاستيلاء على الحكم بمساعدة الجيش التركى وموافقة الأهالى سنة ١١١٧هـ (١٧٠٥م) . وهكذا تأسست الدولة الحسينية التي توارثت الحكم فى تونس إلى يومنا هذا . فماد الأمن للبلاد بعد حالة من الاضطرابات دامت أكثر من أربعين سنة . وقضت الدولة الحسينية منذ أوائل عهدنا على الثورات التي كان يقوم بها الجيش من حين لآخر لقلب نظام الحكم ، وجعلت الولاية وراثية فى العائلة الحسينية .

واستطاع حسين بن على مؤسس الدولة الذى دام عهده خمساً وثلاثين سنة إصلاح شؤون البلاد ، فانتشر الممران فى تونس ، ونشطت الفلاحة والصناعة والتجارة ، وتأسست المنشآت الملمية .

ومن بين ملوك البيت الحسينى الذين اشتهروا بأعمالهم وما ترم يجب أن نذكر على باى (١١٤٨ - ١١٦٩هـ) (١٧٥٦ - ١٧٣٥م) الذى استطاع أن يحقق لتونس عشرين سنة من الرخاء والطمأنينة . أما حمودة (١١٩٦هـ - ١٢٢٩هـ) . (١٧٨٢م - ١٨١٤م) فقد اشتهر فى التاريخ بتمتين علاقاته مع أوروبا ، وخاصة مع نابليون سنة ١٨٠٢م ، وبحربه مع البندقية التي دامت ثمانى

سنوات ( ١٧٨٤ م - ١٧٩٢ م ) .

\*\*\*

وقد امتاز الحكم التركي في تونس -- شأنه في ذلك كشأنه في كل الممالك التي كانت تسيطر عليها الدولة العثمانية -- بأنه كان يقوم على القوة وعلى الجيش . وكان هم الدولة العثمانية الاستيلاء على أزمة الحكم في ممتلكاتها مستندة في ذلك على الجيش . ولم يكن لها اتجاه معين في سياستها ، ولا مبادئ تسيير عليها في تنفيذ هذه السياسة ، وبقدر ما يستطيع الجيش أن يحافظ على الأمن تزدهر الحياة الاقتصادية وتنمو التجارة والصناعة والفلاحة والمعلوم والفنون .

وكان يتحكم في البلاد قوتان عظيمتان هما : الجيش من جهة ، ويمتد عليه الوالي في حفظ الأمن وجباية الأموال ، وطائفة « الرياس » من جهة أخرى ، وهم الذين يتولون عمليات القرصنة ، وهي نوع من العمليات الحربية التي كان يقوم بها الجانبان المتحاربان من الدول الأوروبية والشرقية .

وقد رأت تونس تحت الحكم التركي عهداً زاهراً بالرغم مما انتاب البلاد من اضطرابات بفضل ما بذله بمض الأسماء الصالحين من مجهودات جبارة للنهوض ، بالبلاد في سائر نواحي حياتها . وفي أوائل هذا العهد كان نزوح عدد كبير من العرب الذين طردوا من الأندلس سنة ١٠١٦ هـ ( ١٦٠٩ م ) من العوامل التي نشطت التجارة والفلاحة والصناعة .

وقد استوطن عرب الأندلس في سهول بنزرت ومجردة والدخلة ، وشيدوا فيها القرى الفلاحية كطبرية ومجاز الباب وتستور والمالية وقلمة الأندلس وقرنبالية وزغوان وسليمان والجديدة ، وأنشأوا الزارع والبساتين ، حتى عادت إلى البلاد رفاهيتها القديمة .

وكانت الفنائم التي يفتنهمها الفرسان في البحر الأبيض المتوسط من عوامل آراء السكان ، وقد قوت القرصنة حركة البلاد التجارية وجملت أسواق المدن مزدهرة . على أن أعمال القرصنة لم تكن حائلا دون ربط الصلات بين تونس وأروبا ، واستثناف علاقاتها التجارية مع الدول كاسبانيا والدانمارك والولايات المتحدة ، فبمجرد ما انتظمت أحوال الدولة ، نشطت تجارتها مع مرسيليا وليفورن وبقية المدن الأوروبية ، وقد تكونت علاقات رسمية بين تونس وفرنسا سنة ١٥٧٧ م

وأرسل ملك فرنسا هنري الثالث قنصلاً إلى تونس بعد الحصول على موافقة الدولة العثمانية التي أعطت لفرنسا امتيازات كبيرة في سائر ممتلكاتها .

وقد ابتدأت تونس تسير شيئاً فشيئاً نحو شكاتها الحاضر وبخاصة منذ تولى حسن بن علي الحكم وجعله وراثياً في بيته . وكانت الروابط التي تربط الأمراء الحسينيين بالدولة العثمانية تتلاشى على عمر الأيام ، وضعف سلطان تركيا في تونس حتى كاد يكون عديم الوجود . وهكذا ابتدأت تنمو في تونس قومية تونسية بالمعنى الحديث وظهرت للوجود دولة تونسية اعترفت الدول الأوروبية بكيانها وعقدت معها المعاهدات .

والحقيقة أن المنصر التركي الذي نزل بارض تونس وأقام الحكم فيها قروناً عديدة لم يدخل تغييراً جوهرياً في أحوال البلاد ، ولم يعتبر أهل تونس الغزاة الأتراك أجانب عنهم إذ كانوا يحكمون البلاد نيابة عن السلطان خليفة المسلمين جميعاً . على أن المنصر التركي لم يحتفظ بشخصيته بل أندمج بمرور الزمن في المنصر العربي .

واستمرت النهضة التونسية التي ابتدأت في عهد الدولة الحفصية وأخذت طابعها الخاص بلا انقطاع تحت الحكم العثماني ، وأخذت تونس تسير بخطى سريعة نحو التطور المعصرى لما طالع عليها فجر القرن التاسع عشر الميلادي .

### تونس في القرن التاسع عشر :

في أوائل القرن التاسع عشر بدأت تونس تستيقظ متدرجة في طريق النهضة المصرية ، وكان يربطها بالدولة العثمانية مجرد روابط روحية ، فبادرت بالتحرر من هذه القيود الصورية ، واعترفت الدول الأوروبية كفرنسا وإنكلترا والنمسا باستقلالها وعقدت معها المعاهدات والاتفاقات . ثم اتجهت همه أمراًها إلى إدخال الإصلاحات على مرافق البلاد الحيوية ، وفي مقدمتها إصلاح نظام الحكم بما يتفق والنظام الدستوري السائد في الأمم المتقدمة .

فقبيل فرض الحماية الفرنسية بنحو أربعين سنة نجد على عرش تونس الباي المصاح الشهير أحمد باشا ( ١٨٣٧م - ١٨٥٥م ) الذي كان حريصاً على إدخال

إصلاحات واسعة النطاق في جميع النواحي ، وهيأت له الزيارة التي قام بها إلى أوروبا سنة ١٨٤٦ م فرصة الاطلاع على تقدم المدنية الحديثة والاقتناع بإدخال انقلاب جديد في حياة الشعب ، وبمجرد عودته إلى تونس وضع مشروعات هذا الانقلاب الذي كان يرجو من ورائه تدعيم أركان دولته وتنظيمها على أساس جديد يضمن لها التقدم والرقى ويحفظها من اعتداء الدول عليها . وكان أبرز ما قام به من مشروعات تنظيمه للجيش على الأساليب الحديثة ، وأنشأه لدراسة حربية جلب إليها الأساتذة من أوروبا ، واحداث مصانع للأسلحة والذخيرة ودار لصناعة السفن ، وتكوين أسطول بحرى .

وقد سار على منواله محمد باشا الذي ارتقى عرش تونس عام ١٨٥٥ م . وقد اشتهر هذا الملك بأصداره دستورا حديثا للدولة التونسية سمي «عهد الأمان» ( ١٠ سبتمبر سنة ١٨٥٨ ) وهو أول دستور في العالم الإسلامى .

وفي عهد الصادق باى وبفضل جهود المصلح الكبير الوزير خير الدين باشا تم تعديل هذا الدستور عام ١٨٦١ وفقا لمبدأ فصل السلطات ، وأقامة النظام البرلماني ، وتأسيس مجلس تشريعي له سلطة واسعة منها حق خلع الأمير إذا خالف بتصرفاته أحكام الدستور . ونظمت الإدارة المركزية والإدارات المحلية تنظيما عصريا ، كما نظمت البلديات والمحاكم الشرعية وشؤون الأوقاف ، وسن قانون جديد يضمن للفلاحين حقوقهم<sup>(١)</sup> ، كما وضع برنامج خاص لتوزيع الأراضي الزراعية الأميرية على سكان البادية . وأنشئ مجلس للمعناية بالشؤون الصحية وإدارة لغابات الزيتون وإدارة الأوقاف ، ونظمت مناهج التعليم بجامع الزيتونة ، وأسست المدرسة الصادقية للدراسة العلوم الحديثة واللغات الأجنبية ، كما أرسلت البعثات العلمية إلى إيطاليا وفرنسا . وهكذا كانت تونس تسير بخطى واسعة في سبيل الرقى والتقدم إلى أن منيت بالاحتلال الفرنسي . فأقامت فرنسا المراقيل في سبيل هذه النهضة وعطلت سيرها ، وأعدت البعثات العلمية من أوروبا ، وحوات مناهج التعليم بالمدرسة الصادقية إلى أن جعلتها مناهج لإخراج الموظفين والترجمين بحسب .

(١) وهو قانون « الخماسة » المعمول به في تونس حتى اليوم .